

تمائيل الحلوى

كان من عادة الفاطميين في مصر الإكثار من عمل هذه التماثيل في أسمطة المواسم والأعياد ، واتخاذها على أشكال شتى . قال ناصر خسرو في رحلته « سفرنامه » : إنه لما توصل إلى دخول الإيوان المقام به سماط عيد الفطر بمصر سنة ٤٤٠ شاهد عليه تماثيل شجرة من السكر تشبه شجر الأترج بأغصانها وأوراقها وثمارها^(٢١٣) .

وفي « خطط المقرئى » في ذكر سماط عيد الفطر نقلا عن « التاريخ الكبير » للمسبحى ما نصه : « وفي آخر يوم منه — يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة — حمل يانس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل ، وأطباقاً فيها تماثيل حلوى ، وحمل أيضاً على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر »^(٢١٤) .

وذكر المقرئى أيضاً في « خطته » في كلامه على سوق الحلاويين وما كان يصنع به ما نصه : « ولقد رأيت مرة طبقاً فيه نقل وعدة شفاف من خرف أحمر في بعضها لبن وفي بعضها أنواع الأجبان ، وفيما بين الشفاف الخيار والموز ، وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت أيضاً لهم عدة أعمال من هذا النوع ، يحير الناظر حسناتها ، وكان هذا السوق في موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرًا ؛ فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق واحداً لها علاقة ترفع بخيوط على الحوائيت ؛ فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل ، تشتري للأطفال ، فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلى أسواق البلدين مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف ، وكذلك يعمل في موسم نصف شعبان ، وقد بقي من ذلك إلى اليوم بقية غير طائلة »^(٢١٥) .

وفي « طبقات الشافعية » للسبكي في ترجمة أنى على الروذبارى المتوفى سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وكان من أئمة الصوفية ، أنه اشترى مرة أحمالاً من السكر

الأبيض ، ودعا جماعة من صناع الحلوى ، فعملوا له من السكر جداراً عليه شرفات ومحاريب على أعمدة ، ونقشوها كلها من السكر ، ثم دعا الصوفية ، فهدموها وكسروها وانهبوها» (٣١٦) .

وقال ابن جبير في « رحلته » في وصف أسواق مكة : « وأما الحلوى فتُصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى ، يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة ، وفي الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان تتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها ، لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية ، وجليت على منصّات كأنها العرائس ، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة ، فتلوح كأنها الأزاهر حسناً ، فتقيد الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار » (٣١٧) .

وقال المتنبى وقد أهدى إليه بعضهم تماثيل سمك من سكر ولوز تسبح في لجة عسل :

أهلاً وسهلاً بما بعثت به إيهياً أبا قاسم وبالرسل
هدية ما رأيت مُهْدِيَهَا إلا رأيت العباد في رجل
أقل ما في أقلها سمك يلعب في بركة من العسل (٣١٨)

وقال إبراهيم الممار المعروف بابن غلام النورى في تمثال فيل من الحلوى :

قد صوروا الفيل الكبير ر حلاوة وله طُلاوة
ما قولكم في معشر الفيل عندهم حلاوة (٣١٩)

وفي « تاريخ ابن إياس » أن الأمراء لما قبضوا على الأمير قوصون ، وأرسلوه إلى سجن الإسكندرية لاتهامه بقتل المنصور أبى بكر بن محمد بن قلاوون بعد خلعه سنة ٧٤٢ عمداً أهل مصر إلى تصوير صورة قوصون في العلاليق وهو مسمم ، فقال الممار في ذلك :

شخص قوصون رأينا في العلاليق مسمر
فمجبنا منـه لما جاء في التسمير سكر (٣٢٠)

ورأينا في كتاب « كنز الفوائد في تنويع الموائد » (٣٢١) أن هذه التماثيل تصنع عادة

من نوع من الحلوى اسمه المشاش ، وخلاصة ما ذكره عنه أنه جلاب يعقد على النار ويضرب بالمهراس حتى يفور فيقلب على رخامة ، ويترك ساعة ، ثم يلون بالأصباغ ، قال : « وهذا هو الذى تعمل منه جميع التماثيل المختلفة » . قلنا وهو لفظ فارسى مفتوح الأول يطلق عند الفرس على حلوى تعقد من العسل . وفى كتاب « صفة الأطعمة »^(٢٢٢) وصف أنواع من الحلوى تعقد لتصنع منها التماثيل لا يتسع المجال لذكرها .

ومن أغرب ما يذكر عن العرب فى الجاهلية ، ويشبه تماثيل الحلوى ، ما نقله الحافظ ابن حجر فى باب التصاوير من « فتح البارى » عن القرطبى ، قال : « إن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شئ ، حتى إن بعضهم عمل صنمَهُ من عجوة ، ثم جاع فأكله » . ومثله ما ذكره البيرونى فى « الآثار الباقية » عن صنم من حيس* اتخذته بنو حنيفة فى الجاهلية قبل مُسَيِّلة فعبدوه دهرًا ، ثم أصابهم مجاعة فأكلوه ، فقال فى ذلك رجل من بنى تميم :

أكلت ربّها حنيفةً من جو عرٍ قديم بها ومن إعواز

وقال آخر :

أكلت حنيفة ربّها زمن التقمّ والجاعة†
لم يحذروا من ربّهم سوء العواقب والتباعد^(٢٢٣)

ويلحق بذلك التماثيل التى كانوا يصنعونها من العجين ويسمونها بالجعاجر . قال فى « القاموس » : « الجعاجر ما يتخذ من العجين كالتماثيل ، فيجعلونه فى الرّبّ إذا طبخوه ، فيأكلونه ، الواحدة جُعْجُرّة كطرطبة » . ومثلها مدائن العجين التى كانت تعمل فى الأندلس يوم النيروز ، قال صاحب « نفع الطيب » : « وقال أبو عمران موسى الطريانى لما دخل يوم نيروز إلى بمض الأكبر ، وعادتهم أن يصنعوا فى مثل هذا اليوم مدائن من العجين . لها صور مستحسنة ، فنظر إلى صورة مدينة فأعجبته ، فقال له صاحب المجلس صفها وخذها :

(*) الحيس بفتح فسكون : طعام يعمل من التمر والسمن والأقط أو الدقيق بدل الأقط .
(†) أى زمن الشدة

مدينة مُسَوَّرَةٌ تحار فيها السَّحَرَةُ
لم تَنْهَها إِلَّا يَدَا عَدْرَاءٍ أَوْ مُحَدَّرَةٍ
بَدَتْ عَرُوساً تَجْتَلِي مِنْ دَرَمَكٍ مَرْغُفَةٍ*
وما لها مَفَاتِيحُ إِلَّا الْبَنَانُ الْعَشِيرَةُ» (٢٣٤)

ووقفنا في كتاب «المعيار»^(٢٣٥) ، وهو مجموع فتاوى مالكية على سؤال يدل على أنهم كانوا يصنعون بالمغرب صور أيدٍ من الشمع والحلوى والعجين ، ونصه : « وسئل الأستاذ أبو إسحاق الشاطبي عن الأيدي التي يصنعها الشماعون من الشمع والفانيد ، وما يصنع منها من العجين ، هل ذلك جائز أم داخل تحت الوعيد الذي ورد في المصورين ؟ » وقد أجاب بالجواز ؛ لأنها جزء من صورة لا صورة كاملة . وقوله الفانيد هو نوع من الحلوى ، غير أنه ورد في الكتب اللغوية والتاريخية بلفظ الفانيد بالثناة التحتية بعد النون وهو معرب يانيد بالفارسية ، ويظهر أن العلماء بالمغرب رأوا حذف الياء ليلحقوه بالأبنية العربية ، لفقد فاعيل من كلام العرب ، وليس هذا إلا لحاق بشرط متبع في كل ما عرّب ، وأما عوامهم فقد سمعناه ملفوظاً بالياء من النازلين منهم بمصر .

(*) الدرمة بوزن جعفر : دقيق الحواري ، أى الدقيق الأبيض اللبّاب .